الصمت من الأخلاق إلى الأنا بالآخر الغريب[1]

- **محمد الضامن**

تمتلئ مدونة تراثنا العربي بما يعرف بـ(أدب الصمت)، حيث تفرد له بعض كتب المجاميع بابا تحت مسمى: باب في الصمت، ككتاب ابن عبد ربه الشهير (العقد الفريد). والمتصفح لهذه المدونات التي تفرد له بابا، أو كتابا تاما، مثلما يصنع ابن ابي الدنيا (ت ٢٨١ هـ) حين يضع كتابه:(كتاب الصمت وآداب اللسان)، أن هناك خطابين يتصارعان بمنطق بلاغي جميل في المدونة التراثية: خطاب تفاضلي بين فضيلة الصمت، وفضيلة الكلام. فإذا كان ابن ابي الدنيا في كتابه (كتاب الصمت) ينحاز بشكل كامل لفضيلة الصمت؛ فإن أبا عثمان الجاحظ ينحاز لفضيلة الكلام في رسالته: (تفضيل النطق على الصمت). بينما صاحبنا ابن عبد ربه في العقد الفريد فيكتفي بسرد ما جمعه من حكم، ومأثورات حول الصمت، ثم يتبع هذا الباب بباب في المنطق يستجمع فيه ما قيل من محامد الكلام دون أن يدخل في جدال بينهما، كما يفعل الجاحظ. فهو يكتفي بإخبارنا بقوله:(قال الذين فضلوا المنطق)، فيسرد مقولاتهم كحجتهم التي يفتتح بها هذا الباب:(إنما بعث الأنبياء بالكلام ولم يبعثوا بالسكوت. وبالكلام وصف فضل الصمت، ولم يوصف القول بالصمت، وبالكلام يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر...).

[1] تجد هنا رابط النص منشورًا على الشبكة العنكبوتية في موقع حكمة.

إن فضيلة الصمت تتمحور عند أصحابها حول فساد اللسان باعتباره منبع الشر، وأساس الطريق إلى الإثم. تتمثل هذه الفكرة في الكثير من الأحاديث عن الرسول والصحابة، وحكم الاولين، ومأثورات العلماء، والزهاد، مثل الحديث الدي يورده ابن أبي الدنيا مرويا: (عن ابن مسعود...أنه كان على الصفا يلبي، ويقول: يا لسان قل خيرا تغنم، أو أنصت تسلم من قبل إن تندم؟ قالوا: يا أبا عبدالرحمن، هذا شيء تقوله، أو شيء سمعته؟ قال: لا، بل سمعت رسول الله يقول:" إن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه"). تكاد تكون هذه الفكرة المركزية التي يدور حولها كتاب الصمت بتنويعات مختلفة، حيث يُقسَّم الكتاب لعدة أبواب مُفتَتَحا بباب: (حفظ اللسان وفضل الصمت)، وبقية الأبواب تدور حول الأخلاق الفاسدة التي تنتج عن اطلاق الكلام مثل باب (النهي عن فضول الكلام والخوض في الباطل)، أو (النهي عن الكلام فيما لا يعنيك)، أو (الغيبة التي يحل لصاحبها الكلام بها) وباب: (ذم اللسانين). ويستمر في ذم المزاح، والكذب وتبيان فضيلة الصدق، فاللسان عند أصحاب الصمت مورد الهلاك: هلاك أخلاقي، وجسدي يتجسد ذلك في مقولة أكثم بن صيفي التي يذكرها في باب الصمت ابن عبد ربه: (مقتل الرجل بين فكيه). وهي مقولة سارت مجرى الأمثال حيث يدونها الزمخشري في كتابه: (المستقصى من أمثال العرب). هذا الخطاب حول الصمت يخوض فيه أبو عثمان الجاحظ ببلاغته المعهودة، وقلمه المحترف في الجدل بأناقة الفارس الذاهب للحرب، لكنها أناقة نابعة من: بلاغة المنطق. فهو في صدر رسالته: (تفضيل النطق على الصمت) يذكر صاحبه الذي ينحاز للصمت بمقولته في فضله مقرا له بذلك حيث يقول: (قد قرأت كتابك فيما وصفت من فضيلة الصمت، وشرحت من مناقب السكوت...وذكرت أنك وجدت الصمت أفضل من الكلام في مواطن كثيرة وإن كان صوابا، وألفيت السكوت أحمد من المنطق في مواضع جمة، وإن كان حقا).

يلخص الجاحظ مقولات المنحازين للصمت مذكرا صاحبه: (وزعمت أن اللسان من مسالك الخنا، والجالب على صاحبه البلا، وقلت: إن حفظ اللسان أمثل من التورط في الكلام). يتنبه الجاحظ لما يمكن تسميته بوهم الحكمة في الصمت حين يقول: (وسميت الغبي عاقلا، والصامت حليما، والساكت لبيبا، والمطرق مفكرا. وسميت البليغ مكثارا والخطيب مهذارا، والفصيح مفرطا، والمنطيق مطنبا). يعد الجاحظ صاحب كتاب الصمت الذي يحاججه؛ بأنه مهتدٍ بهواه، ويظن بأنه: (لا يلفي له ناقضا في دهره بعد أن أبرمها، ولا يجد فيها مناويا في عصره بعد أن أحكمها)، وأنها تدل على (كلام أمرئ قد أعجب برأيه وارتطم في هواه)! يعتد الجاحظ بنفسه، وبرأيه حين يبدأ بسرد حججه :(وإني سأوضح ذلك ببرهان قاطع، وبيان ساطع...بما لا يستطيع أحد رده، ولا يمكنه إنكاره وجحده)! ماهي حجج الجاحظ إذن عن فضل الكلام على الصمت؟! تتمحور حججه على أساس أن الخير الذي يبتغيه الإنسان، ومنهم أصحاب الصمت لا يحوزه الإ بالكلام مخاطبا صاحبه: (أنك

لا تستطيع العبارة عن حاجتك والإبانة عن مآربك إلا باللسان). فالجاحظ ينحاز للكلام بوصفه طريقا للمعرفة، وبيان لحقائق الأمور بينما الصمت في نظره عجز حيث يقول: (ولم يحمد الصمت من أحد إلا توقيا لعجزه عن إدراك الحق والصواب في إصابة المعنى). فحين يكون الشخص عالما يعد الصمت عيبا في حقه، إذ الصمت ملزم للجهل كما يرى الجاحظ: (ولم يلزم الرجل الصمت أحد إلا على سبيل وقوع الجهل عليه، فأما إذا كان الرجل نبيها مميزا، عالما مفوها فالصمت مهجن لعلمه وساتر لفضله). فلم يعرف فضل العرب الإ ببلاغة اللسان، حيث يستشهد الجاحظ بالقرآن حيث جاء للعرب كما تقول الآية الكريمة: (بلسان عربي مبين). وأن الرسول كان: (أفصح العرب لسانا، وأحسنهم بيانا). هكذا تمحور خطاب الجدل بين فضيلة الصمت والكلام، لكننا سنجد هناك من يزيل الترهلات عن فكرتي المفاضلة هذه من خلال طرح فيه اقتصاد في الكلام. وهي فكرة دارت عليها فكرة البلاغة باعتبارها الكلام الخالي من الإطناب، والميل إلى الإيجار مثلما يستشهد ابن رشيق القيرواني في كتابه (العمدة) بأمثلة دالة على لسان أحدهم دون ذكر لاسمه: (قيل لأحدهم: ما البلاغة؟ فقال: إصابة المعنى وحسن الإيجاز). وعن آخر حين سئل عن البلاغة قال: (معان كثيرة، في ألفاظ قليلة). هذه البلاغة التي تدل على الصمت في الكلام، التي تنقل العلم، والجمال، والأخبار دون هدر في الكلمات، فنسمع المعرفة بشعور مليء بالصمت، فلا يحمل الكلام جلجلة الإطناب.

هذه الفكرة ممكن الاستشهاد عليها بشعر حديث يمثله صنيع الشاعر وديع سعادة، هذا الشاعر الذي يمكن وصفه بالصامت الكبير. فهو ينحاز للصمت بوصفه طريقا للحياة لم تجربه البشرية، بل جربت طريق الهلاك عبر الكلام حيث في نص (إنها الكلمات الأخيرة... وها أنا أهجرها) يقول: (في البدء لم يكن كلام، كان الصمت. وحين انبثقت الكلمات بدأ طريق الموت). يبلور سعادة تأمله للصمت في نص بالنعوان ذاته (الصمت) مستشهدا، ومستفسرا عن سر صمت نيتشة :(لماذا أمضى نيتشة سنواته الأخيرة صامتا منعزلا؟). يطرح علينا سعادة انقلابا عميقا حول فحوى كل من الكلام، والصمت حين يتساءل في نص (الصمت): (هل من حد، أو نقيض، بين الصمت والكلام؟ ألا يكون الكلام في الغالب أخرس والصمت في الغالب مطلوق اللسان؟ أليس السكوت لغة داخلية ضاجة والقول أصواتا ضاجة أيضا؟ أين الحدود إذن؟). فإذا لم تكن هناك حدود بين الكلام، والصمت فكلاهما يقول سعادة: (هباء واحد يجمع الصامتين والمتكلمين). فما الفارق بينهما إذن؟! يتساءل سعادة عندها: (ما معنى أن نختار الصمت وأن نختار الكلام؟ ما الفارق إن تكلمنا أو صمتنا؟ لكن هذا لا يمنعه من أن يختار الصمت باعتبار (أن الصمت يخفف الثقل!) وتصبح الحياة مرتاحة من الضجيج فكلما (نقص صوت) يعتقد سعادة (أن الأرض تشعر براحة). من هنا تأتي دعوته لنا أن نجرب الصمت قائلا: (فلنصمت قليلا). ولو سألناه عن مبرر هذا القرار الذي سنجد فيه قسوة على ذات

امتهنت الكلام، فسيقول لنا لأن: (أصواتنا أودت بنا إلى هنا، إلى هذا الجحيم. إلى القتلى الساقطين بالكلمات، بالخطابات، بالشعارات. إلى المعذبين في زنزانات الكلام المقفلة. المشنوقين باستحالة وصول الصوت)! ماذا بشأن الصامتين يا وديع؟! (الصامتون منتحرون أيضا. صحيح. لكنهم يتوحدون مع ذواتهم على خشبة الانتحار). كأن الصمت هنا خيار أما الكلام فحمى العالم الذي يستهلك الذات في قسوة انخراطها فيه. من هنا دعوته لوقف الكلام؛ لأن (الأصوات تنشر الأمراض)، وانقاذ البشرية يأتي من شخص (يأمرها بالصمت). لقد تكلم سعادة كثيرا كما يقول (لكن الصمت كان (كنزه) الوحيد). لا ينطلق سعادة من بعد أخلاقي كما رأينا لدى ابن أبي الدنيا مثلا في انحيازه للصمت، بل من بعد معرفي يعمق تجربة الداخل، وربما هو نتاجها أيضا، حيث ولادة الإنسان العميقة هي بين حدين، وتحديدا كما يقول سعادة في:(النقطة التي تكاد لا ترى، بين احتضار الصوت وولادة الصمت. بين انتهاء الكلام وبدء السكون). عند هذه النقطة (ينتهي التناسل الخارجي ويبدأ التناسل الداخلي. تبدأ ولادة الحياة التي تخصنا).

تدعونا نظرة سعادة أن نتساءل: هل الصمت حنين إلى الموت؟! لقد شعرت بالانزعاج الآلهة في أسطورة الخلق البابلية (اينوماإلش) من المخلوقات الصغيرة لما أحدثته من صخب؛ لذلك قررت كما تخبرنا الملحمة أن تفنيها؛ لكي تشعر بالراحة وتخلد للنوم في سلام. وهذا ما ستعيده ملحمة جلجامش على لسان سيدري حين يخرج جلجامش باحثا عن سر الموت وعشبة الخلود مؤكدة: لقد قررت الآلهة أن يكون الموت نصيب البشر وكأن الصمت المتمثل في الموت عقاب أبدي على جريرة الكلام الصاخب. الموت المرادف للصمت للخواء، والعدم الذي قطعه الكلام. حين يقول الانجيل: (في البدء كان الكلمة) كان يعطي الإشارة على بدء الحياة متخذا المسيح رمزا بشريا لهذه الكلمة التي ستنبت الحياة على الأرض؛ كأنها إعادة تأويل لقرار الآلهة البابلية في خلق بديل للموت عبر حياة ستمثلها الكلمة في المسيح؛ لكنه كان ضجيجا قاسيا على الإنسان كل هذا الكلام الطويل كرمز لإعادة الحياة، لا يرتاح منه الإ بعد أن يشن الحروب الكبيرة التي يعيد عبرها ذلك الخواء، والصمت الذي يشيعه الخراب، والجثث في الذاكرة لفترات طويلة حتى يستعيد بعد زمن وهج الكلام تعقيبا على ذلك الموت والهلاك متأملا في الكارثة! هكذا يمثل المسيح رمزيا الموت والحياة، الصمت، والكلام الذي يعيد علاقة الإنسان بالآلهة بوصفه بداية الكلام المتصالح مع الإله، كي يهب الإنسان الحياة من جديد، لا صمت الموت!

لقد درب الكلام الانسان على الاختناق، حوَّله إلى آلة يشعر حين تتوقف بالموت، لذلك ضل متأرجحا بين الخوف من خواء الصمت، والإمّحاء، وبين أن يضل مشلعا في الكلام. لقد أدمن على النظر بالكلام،

فكان النظر أيضا ما يلقي به في باحة الأمن حين يساهم النظر في المعرفة، فالموت كان لغزا عالجه بلعبة النظر هذه التي صار الكلام آلتها الممتعة: المتعة الحارقة! هذا الكشف، والتكشف الذي يدشنه الكلام، يعيش مع الصمت تحت وطأة القلق، وانعدام الأمان. هكذا يحتج الصمت على مسيرة الكلام الحضارية بوصفها آلة الحمقى المتسببة في انهيار الأسرار، فكل الحكماء راهنوا على الصمت لا على الكلام، الصمت رمزا لصمت الالهة الابدي! خلافا لمقولة ارسطو المتدحرجة على الألسن: (تكلم حتى أراك) التي تضع الكلام طريقا للرؤية بينما هي تلمح إلى الخوف من غموض الصمت، صمت الآخر الغريب الذي لن نعرف ما يخفيه حتى يتدحرج عقله على صارية الكلام. لقد كان الكلام طريقا لتهديم تلك المخاوف الغامضة التي يحملها الغرباء؛ لذلك نجدهم كي يحافظوا بينهم على أسرارهم من التكشف، وكي يبقى الصمت ماثلا في علاقتهم بالآخرين حفاظا على أرواحهم؛ فإنهم يرمزون خطاباتهم برموز لا تفهم إلا لأفراد الجماعة. ففي الحروب تتبين هذه اللغات السرية بين الأعداء؛ ليصرف كلا الطرفين جهدا كي يفك شفرة الصمت هذه التي تبقي الشر ماثلا عبر لعبة صمت الرموز، والكلام بعد تفكيك تلك الرموز ليتضح الآخر في الكلام.

فالرموز هي صمت المعاني المتفق عليها بين الجماعة. وتمتلك كل الثقافات هذين المستويين من اللغة حيث نجد مستوى الرموز الثقافية لدى معظم القبائل البدائية تعامل رموزها الدينية بمثابة أسرارها الخاصة بحيث لا يسمح حتى لأفراد القبيلة بالاطلاع عليها إلا بعد مروره بطقوس التحول الذي سيعرضه الى امتحانات قاسية وفي نهايتها يتم اطلاعه عليها بعد أن يثبت اجتيازه للامتحانات. هكذا تبني الثقافات لغة الصمت عبر الرموز المغلقة، والتي تحتاج لفكها، وفهمها إلى خبراء من داخل القبيلة. فعبر هذا الترميز الصامت للمعاني يتحول الصمت لفضيلة شبه مقدسة؛ لذا نجدها أمثولة في حياة الحكماء، ومعنى النضج العقلي في الثقافة العربية، حيث عُدّ الكلام حماقة كلما طالت به المسافات دون أن يكون للمعنى فيه مبيت. أما الكلام فيتبدى عبر ذاك التاريخ شبه المقدس للصمت حربا ضروسا للمعاني وميدانا للحماقات، ولعبة محفوفة بالمخاوف عبر ترميز المعاني بين الآنا والآخر الغريب! فالأنا تتكشف عبر الصراحة، عبر البوح المفتوح لمعنى الذات أي أن تفك شفراتها الصامتة نحو الآخر عبر الكلام اللامحدود للثرثرة والانكشاف؛ لكنه يحمل معه مخاطرة كما يلاحظ ذلك بعين نافذة الشاعر الايطالي تشيزاري بافيزي في (مهنة العيش) حين يقول: (في العلاقات مع الناس الآخرين، لحظة صراحة واحدة كفيلة بأن تفسد لنا أياما بكاملها من نفع الآخرين). هذا الحذر الذي يعبر عنه بافيزي من التكشف يحيل الى تاريخ عميق من الألعاب الثقافية لفكرة الصمت، والكلام، إذا لم نقل إلى صراعهما. حيث الكلام دائما هو نحو الآخر الغريب. فبقدر ما عبَّرت اللغة عن فك الحواجز بين الإنسان عبر تواصلية اللغة إلا أنها ظلت تحتفظ بهذا التجاذب المحفوف بالمخاوف، والحذر من الآخر عبر الترميز، وعبر رفع الصمت ليكون

دليلا على النضج والحكمة، والأهم على النجاة من استعمال ذواتنا من قبل الآخر على نحو يشكل لنا الضرر والإهانة. لذا يحفظنا الصمت من تلك الاحتمالات، وعلى هذا الصمت ترتكز الذات في علاقتها بالآخر الغريب كاقتصاد في الكلام نتلمس فيه المخاوف العميقة. كما نعلم من التعاليم التي ترشد بها الثقافة الشعبية حين تحذر أبناءها غير الراشدين من الكلام مع الأغراب؛ لتحافظ على أمانها عبر ممارسة هذا الصمت؛ فلا تتكشف أمام الغرباء تحت وطأة لسان أبنائها غير الراشدين، حيث لا يدركون كيف يديرون لعبة الكلام مع الغرباء بحيث يعرفون ما يجب أن يبقى صامتا بينهم، وبين ما يمكن البوح به للغرباء! وهو ما يمكن أن يعد أساسا جذريا لفكرة كون اللسان أساسا، ومنبعا للشر، كما تقول به الحكمة الرائجة في الثقافة العربية عند المنادين بفضيلة الصمت حين اعتبرت الكلام منبعا للمفاسد، مثلما تخبرنا الحكمة المتداولة: (لسانك حصانك إن صنته صانك). فهي تتعايش هنا مع هذا التاريخ المتوتر للعلاقة بالآخر الغريب الذي سنبوح له بالكلام؛ فتحذرنا الحكمة بالتروي حيث الكلام طريق للتهلكة إذ نخوض بأرواحنا في عوالم الآخرين الغرباء الغامضين، وكما توضح مقولة محمود درويش هذا الحذر العميق من الحديث مع الآخرين حين يقول محذرا:

لا تكثروا من الفضفضة
فإنكم لا تدرون متى يخون المنصتون.

فإذا كان الإطناب قبح جمالي بوصفه كلاما زائدا عن الحاجة كما تشير اقتباسات ابن رشيق القيرواني؛ فإن الفضفضة باعتبارها كلاما فائضا في البوح تعبر عن مخاوف من نقص في العقل كما تشيع في الثقافة حيث الفضفضة، أو الثرثرة هي انسياق للكلام دون ضابط يضبطها. من هنا هي تقف ضد التعقل بوصفه اقتصادا في الكلام، وفي آخر المطاف تعبر عن الحذر من الآخر الغريب الذي قد يخون ذلك البوح الكثيف كما توصينا مقولة درويش. هكذا تحتفظ الثقافة بتراث عميق لتاريخ العلاقة بالآخر الغريب المتوتر عبر كل هذا الجدل بين الصمت والكلام، وذلك بوصف الصمت هروب الذات نحو الداخل للاحتماء من عنف التعرض لنظرة الآخر، بينما الكلام خروج، وذهاب للاشتباك، والانكشاف أمام الآخر الغريب أي الذهاب نحو المخاطرة المتمثلة في مغامرة انكشاف الأنا للآخر الغريب!